دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

دور الثنائية الجغرافية والقبلية
في تأجيج الصراع المرابطي الموحدي

د. الحسين حديدي
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين
كليميم وادنون – المملكة المغربية

مُلَخّص

يتجلى الهدف من إنجاز هذا المقال في إبراز الدور الذي لعبته الجغرافيا الطبيعية لاسيما ثنائية السهل والجبل، في تفسير بعض الصراعات السياسية التي رافقت قيام بعض الدول وإندراس أخرى في الفترة الوسيطية ببلاد المغرب، على اعتبار أن هذه الثنائية الجغرافية شكلت عاملا من عوامل صمود دول وأفول أخرى نموذج السهول التي كانت مجالات قيام دولة المرابطين ومحل حواضرهم ومنها مراكش، لكونهم ألفوا الفيافي والبيداء المتسمة بالانبساط لما نزحوا من أعماق الصحراء الكبرى، بينما شكل الجبل حصنًا حصينًا للموحدين الذين انطلقوا في بناء دولتهم من أعالي الجبال بالأطلس الكبير جنوب مراكش، إلى جانب إبراز دور العصبية القبلية في تأجيج الصراع المرابطي الموحدي حيث كانت العصبية الصنهاجية وراء قيام وتوحيد الدولة المرابطية للمغرب في القرن (٥ هـ/ ١١م)، في حين ساعدت العصبية المصمودية ابن تومرت على جمع كلمة الموحدين ضد المرابطين، مما ساهم في إسقاط دولتهم وبناء الدولة الموحدية على أنقاضها. فيما يخص دواعي البحث وأهميته تتمثل في نظرنا فيما يقدمه من تفسيرات جديدة قد تبدو منطقية في غياب وثائق تاريخية توضح إلى حد ما أسباب هذا الصراع، على اعتبار أن ما تقدمه المصادر التاريخية من معلومات قيمة حول الصراع المرابطي الموحدي ومصير هذا الصراع وحتميته، فإن هذه المعطيات لوحدها تبقى غير كافية إذا لم يتم الانفتاح على باقي العلوم الإنسانية المساعدة كالجغرافيا وعلم الاجتماع وغيرها من العلوم التي تقدم معطيات مساعدة يمكن أن تعيد قراءة الأحداث التاريخية برؤية متبصرة ومنهجية مقبولة في تفسير الحدث التاريخي. أما فيما يخص الدراسات التي تناولت الموضوع من هذه الزاوية أو قاربته من هذه النواحي لم نعثر على دراسة بهذا الشكل، على اعتبار أن أغلب الدراسات المصدرية وحتى المراجع التي قاربت موضوع المرابطين والموحدين، ركزت على الجانب العسكري والاجتماعي لقيام هذه الدول أو سقوطها ورصد بعض الجوانب الثقافية والسياسية للدولتين.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢١ أغسطس ٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر: ٢٨ سبتمبر ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

الدولة المرابطية؛ المغرب الأقصى؛ دولة الموحدين؛ الدعوة التومرتية؛ الصراعات السياسية

معرِّف الوثيقة الرقمي:

DOI 10.21608/KAN.2020.204333

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

الحسين حديدي، "دور الثنائية الجغرافية والقبلية في تأجيج الصراع المرابطي الموحدي "- دورية كان التاريخية- السنة الثالثة عشرة- العدد الخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٠. ص ٧١ – ٨٠.

Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: hadidihoucine@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

Open Access This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشرت هذه الدراسة في دَورِيةُ كَان التَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةُ

شهد العصر الوسيط تدافعًا سياسيًا وعسكريًا بين مختلف الكيانات السياسية المتصارعة حول السلطة والزعامة بالمغرب الإسلامي، فكل هذه الكيانات السياسية والعصبيات القبلية لم تستطع توحيد المغرب تحت قيادة وسلطة سياسية، واضحة المعالم والأهداف إلا بعد ظهور وميلاد الحركة المرابطية بالصحراء الصنهاجية، التي وحدت المغرب وتمكنت من لم شتات القبائل الصنهاجية في إطار توحيد العصبية، ورفع راية الجهاد والدعوة إلى ترسيخ المذهب السني المالكي مع الزعيم المرابطي الفقيه عبد الله بن ياسين، الذي وضع الأساس الأول لبناء الدولة المرابطية، وذات الأمر حصل مع العصبية المصمودية التي استطاعت تكوين وخلق كيانات سياسية موحدية، قامت على أنقاض الكيان المرابطي ووسع من نفوذ المغرب إلى مشارف بلاد السودان جنوبا، ثم الأندلس شمالا بفضل سياسة وحنكة الزعيم الروحي والسياسي ابن تومرت، الذي رسم منهج الدولة وكون طبقاتها وعين قضاتها.

وحينما نتوقف للمقارنة بين العوامل المساعدة في انبعاث الدولتين، نستشف أن النظامين معًا قاما في البداية على دعوة دينية أو إصلاحية ترمي إلى ترسيخ التعاليم الإسلامية والسنية بواسطة الزعيم الروحي والسياسي (عبد الله بن ياسين- ابن تومرت)، ثم العصبية القبلية (الصنهاجية- المصمودية) لتوحيد الجهود وتوفير الجيوش والأتباع، فالدولتان معا استطاعتا توحيد المغرب الإسلامي والقضاء على ذلك التمزيق والانشقاق السياسي الذي عرفه المغرب قبل ظهورهما، فكان لهما الفضل في الدفع بحركة التطور والنماء خلال العصور الوسطى وكذلك في انتزاع الزعامة السياسية التي كانت حكرًا على الخلفاء المشارقة (الأدارسة – الخوارج بتاهرت- الفاطميين- الأغالبة...)، وإنتاج قادة وزعماء محليين تعاقبوا على حكم المغرب واستقلاله عن التبعية السياسية للعباسيين في عهد الخلفاء الموحدين.

فكيف تمكن المرابطون من توحيد شتاتهم؟ وإلى أي حد تمكنوا من توحيد المغرب الإسلامي؟ وما الأسباب الكامنة وراء اندثار نجمهم؟ وإلى أي حد كان ابن تومرت مصيبًا ومحقًا فيما نسب من اتهامات للحركة المرابطية؟ وما الغايات والأهداف التومرتية وراء الثورة على السياسة المرابطية؟ وما علاقة ذلك بالقبائل المصمودية؟ وإلى أي حد تجاوبت هذه القبائل ومشروع ابن تومرت السياسي؟ وهل كان للعامل الجغرافي والقبلي دور أساسي في تأجيج الصراع الصنهاجي – المصمودي؟ أسئلة وغيرها تتناسل لتكون عناصر الإشكالية التي سنحاول ما أمكن مقاربتها على ضوء المعطيات القبلية والجغرافية.

أولاً: ظروف نشأة الدولة المرابطية وعوامل امتدادها

١/١-دور عبد الله بن ياسين في التوجيه الديني والسياسي للمرابطين

يتضح من سيرة الإمام عبد الله بن ياسين، أنه زاوج بين العمل الديني والسياسي، (الأخروي- الدنيوي)، وذلك بمحاولته تطهير قلوب أتباعه من أنواع الشرك وحملهم على الطاعة والاستقامة في كل الأحوال، ومن ثم الطموح إلى نشر هذه العقيدة وتوحيدها بين جميع الفئات ببناء كيان سياسي يحمل اسم أتباعه ومريديه ويوحد مختلف التصورات ويستمد قوته من التزام أتباعه وتركهم للحوادث والمخالفات، ومن أجل ذلك ولتحقيق تلك الطموحات، ما إن لمح عبد الله بن ياسين التفاف عدد كبير من أتباعه حول دعوته الدينية، وانتشار الإسلام السني المالكي بين القبائل الصنهاجية حتى بدأت تراوده فكرة بناء كيان سياسي اشتق اسمه من رباطه الأول الذي أسسه بالقرب من السنيغال،[1] والذي أطلق فيما بعد على مريديه، ورفع راية الجهاد ضد المناطق المجاورة، معتبرا أن جل المناطق الشمالية تستوجب الضم والوحدة، وربما كان يهدف إلى لم شتات العصبية الصنهاجية العمود الفقري للدولة المرابطية.

ومن ثَمَّ ترسيخ المذهب المالكي بالمغرب الأقصى والقضاء على النحل التي كانت قبله (المذهب الخارجي – الأباضي-المذهب الإسماعيلي...)، فقد أشار صاحب البيان المغرب إلى عودة ابن ياسين من رحلته العالمية بالأندلس ومروره بمنطقة المغرب الأقصى، إذ عاين قلة العصبيات بالشمال، وضعفها عن السيطرة العصبية الزناتية، وقدر عدد الجيوش بحوالي ٣٠٠٠ جندي وبذلك أدرك أنه يمكنه التغلب عليهم بسهولة بعدما كون أتباعا كثيرين[2] إذ ما لبث أن تحول من فقيه ديني إلى زعيم سياسي ومن مصلح اجتماعي إلى مجاهد بالسيف. يهدف إلى الوصول للسلطة وتكريس مشروعه الإصلاحي الذي وضع أسسه ورسم منهجه.[3]

تبعًا لما تقدم، نستطيع القول إن زمن قيام دولة المرابطين اقترن بفراغ سياسي بالمغرب، كما يقول عبد الله العروي، حيث استطاع الملثمون تكوين قوة عسكرية وسياسية بالصحراء بعد أن منحهم عبد الله بن ياسين الزاد الديني والروحي،[4] فقد تولى ابن ياسين الزعامتين الدينية والسياسية، وفرض سلطانه

على أتباعه وقد عبر البكري عن سلطته الروحية وانقياد القوم له بقوله: "وكان الإمام يحيى بن عمر أشد الناس انقيادًا لعبد الله ابن ياسين وامتثالاً لما يأمر به".[٥]

إذا كان من البديهي أن يتحول الإمام عبد الله بن ياسين من زعيم ديني ذو سلطة روحية إلى زعيم سياسي وأحد المنظرين للمشروع السياسي للمرابطين، بعدما عاين كثرة أتباعه وانقيادهم له كما يقول البكري، فما هي أهم مرتكزات هذا التحول؟ بمعنى آخر ما هي الدعائم الأولى التي قامت عليها الحركة المرابطية؟

يذهب ابن خلدون إلى أن الدولة المرابطية قامت على أساس العصبية الدعامة القبلية التي لا تستغني عنه دولة من الدول الوسيطية، وأيضًا على الأساس الديني، وهما العنصران اللذان يمدان الدولة بالقوة.[٦] هكذا توجه المرابطون شمالاً بالصحراء لأجل توحيد العصبية الصنهاجية وجمع شتاتها، في ظل تأييد العلماء والفقهاء وضمانًا لاستمرار تجارة القوافل الصحراوية، ومع منتصف القرن الخامس الهجري، بدأ عبد الله بن ياسين بـ ٣٠٠٠ مرابط فهاجم قبيلة جدالة وانتزع منها الطاعة والولاء عام (٤٣٤ هـ/١٠٤٢م)، ثم اتجه نحو لمتونة فبايعته على الكتاب والسنة، وتابع سيره نحو مسوفة وأخضعها.[٧]

وابتداءً من سنة (٤٤٨هـ/ ١٠٥٨م) يمم القائد عبد الله ابن ياسين وأتباعه وجهتهم نحو الشمال، للإطاحة بالعصبية الزناتية،[٨] والسيطرة على المراكز التجارية الهامة بدرعة وسوس، فاستولى على سجلماسة ثم تارودانت بسوس ونواحيها وبعد ذلك توجهوا إلى بلاد المصامدة وفتحوا جبل درن، فبلاد نفيس وسائر البلاد، وبايعت قبائل رجراجة وحاحة أمير المرابطين،[٩] ثم دخل ابن ياسين أغمات وأقام بهما شهرين بعد أن فر أميرها لقوط بن يوسف المغراوي إلى تادلة، وتبعه بعد ذلك وتمكن منه، وزوج أرملته زينب النفزاوية للأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني، ثم قصد بلاد تامسنا يطلب البورغواطيين، وفي ذلك يقول صاحب روض القرطاس: "فلما سمع عبد الله بن ياسين بحال بورغواطة وما هم عليه من الضلالة رأى أن الواجب تقديم جهادهم على غيرهم، فصار إلى غزوهم في جيوش المرابطين".[١٠]

ولما قضى الله الأمر بقتال الكفرة من البورغواطيين على يد الإمام ابن ياسين، جهز هذا الأخير حملة عسكرية على البورغواطيين، أسفرت عن موت الإمام متأثرًا بجراحه عام (٤٥١هـ/ ١٠٥٩م)،[١١] لتستأنف المعارك بعده بقيادة الأمير أبي بكر والقائد العسكري يوسف بن تاشفين. فإلى أي حد ساهم أبي بكر في بناء المشروع السياسي الذي رسمه ووضع أسسه ابن ياسين؟

٢/١-ولاية أبي بكر بن عمر اللمتوني وحسمه للصراع المرابطي البورغواطي

مما لاريب فيه أن صراع بورغواطة ضد المرابطين كان نزالاً قويًا لم يستطع فيه المرابطين حسم المعركة، خصوصًا وأن الحرب قبل أن تكون حول طبيعة المعتقد، كانت حربا قبلية لعبت فيها العصبيتان المصمودية والصنهاجية دورًا هامًا، في استمرار القتال واشتداد رحاه بين الجانبين، فكانت مشاعر الانتماء القبلي أقوى وسائل الدعم الحربي في المعركة. بيد أن بسالة المرابطين وطموحهم الجامح وراء استكمال الوحدة والقضاء على العصبيات المناوئة، زاد من هممهم وقوى من عزيمتهم على مواصلة الجهاد بعد تولي أبي بكر قيادة المرابطين أثناء الاتفاق والاجماع الذي عقده عبد الله بن ياسين ساعة الاحتضار بقوله ما نصه: " فانظروا من تقدمونه منكم ويقوم بأمركم ويقود جيشكم، فاتفق رأيهم على تقديم أمر الحرب لأبي بكر بن عمر اللمتوني".[١٢]

وما إن حصل أبو بكر على الدعم الشعبي وفق القانون الشرعي (البيعة)، حتى استنهض العزائم وعبأ القبائل لمواصلة استئناف الجهاد ضد بورغواطة، وبعد صراع مرير أحرز على انتصار متين، تكلل بانكسار شوكة الأعداء وتنفس المغرب منهم الصعداء، وصارت القوة الغالبة للعصبية الصنهاجية وعقيدتها المالكية، فاستأصل بورغواطة وتعقب الفارين من جيوشهم "... وأذعنوا له بالطاعة وأسلموا إسلامًا جديدًا".[١٣]

وأثناء إقامته بمعية زوجته زينب النفزاوية بأغمات، حوالي ثلاث أشهر استعدادًا لمواصلة الجهاد بباقي المناطق الشمالية الخارجة عن نفوذ المرابطين، علم أبو بكر بنبأ الصراع الذي نشب بين قبيلتي جدالة ولمتونة، حيث قدم عليه رسول من تلك الأقطار " أخبره باختلال أمر الصحراء".[١٤] فتوجه إليها عام (٤٥٣هـ/١٠٦١م)، لتهدئة الأوضاع، وإصلاح ذات البين بين القبيلتين،[١٥] تاركًا أمر المغرب الأقصى بالنيابة تحت تسيير ابن عمه يوسف الذي حقق طموحات ابن ياسين السياسية وآمال أبي بكر العسكرية، بعد توحيده للمغرب الأقصى لأول مرة في تاريخه، من تخوم الصحراء جنوبًا إلى البحر الأبيض المتوسط والأندلس شمالاً، ثم من المحيط غربًا إلى مدينة الجزائر شرقًا،[١٦] فكيف تم له ذلك؟ وما هي الظروف التي ساعدته على اقتناص الحكم من ابن عمه أبي بكر؟

٣/١-جهود يوسف بن تاشفين في توحيد المغرب الأقصى

يُعَدّ يوسف بن تاشفين من أعظم الرجال الذين أنجبتهم الصحراء وكان لهم أبعد الأثر في توحيد المغرب الأقصى، لما عرف عنه من الشجاعة وإيمانه القوي، وهي سمات استمدها من بيئته الصحراوية، بشدتها وقساوتها، فكان لها الأثر البالغ في تكوين شخصيته التي أبرزها في ميدان الجهاد العسكري، ومعلوم أن تلك الانتصارات الواسعة التي حققها إلى جانب المرابطين خلفت في نفسه حبا عميقا للسلطة، ولعل الحادث الذي نشب بالصحراء بين قبيلتي جدالة ولمتونة ونزوح الأمير أبو بكر إلى الصحراء لاحتواء هذا الصراع تاركا ابن عمه خلفا له،[١٧] هو ما زاد من أطماع يوسف في الملك بعدما ذاق حلاوته وعاين ضخامته، وكثرة جنده وأتباعه والتطور الذي حظيت به حاضرة ملكه وعاصمته (مراكش)، فعمل في البداية على استمالة زعماء لمتونة الصحراء، وأغدق عليهم الأموال والهبات لكسب ولائهم، ومساندتهم له في صراعه ضد أبو بكر، ولعبت زينب النفزاوية دورا هاما في حسم الصراع بين الأميرين.[١٨] فقد أشارت على الأمير يوسف بن تاشفين، بمقابلة ابن عمه بنوع من الجفاء والغلظة، وأن يشعره بقوة السلطان ويلاطفه مع ذلك بالهدايا والطعام، بما يصلح للصحراء حتى يعرف مراده قائلة له: "إن ابن عمك رجل متورع عن سفك الدماء ولا تسهل عليه الفتنة".[١٩]

وبنواحي أغمات التقى الجمعان، فسلم يوسف على أبي بكر راكبًا فرسه، ولم تكن هذه عادته فتعجب الأمير أبو بكر من ضخامة ملك ابن تاشفين ووفرة عساكره، فسأله يا يوسف ما تصنع بهذه الجيوش كلها؟ فأجابه أستعين بها على من خالفني.[٢٠] وبذلك يظهر من لقاء الرجلين أن يوسف لم يكن ليتخلى عن الملك وهو يشاهد أمجاده تتحقق، والركائب والوفود إليه تزحف لتهنئته، ولما أحس أبو بكر بانفلات الأمر من يده وأنه لا جدوى من منازلة يوسف عليه، قبل بهديته وقال في حقها باستكبار: "هذا خير كثير من يوسف" وانصرف إلى الصحراء مجنبًا نفسه سفك الدماء، في الوقت الذي أخذ فيه يوسف على نفسه عهدًا بأن لا يقطع أمرًا دون استشارته، ولا يستأثر بشيء دونه.[٢١]

هكذا، فبعد جهاد دام ربع قرن، جنى يوسف ثمرة أتعابه وبسط سيطرته على المغرب الأقصى، وأحسن بناء دولته وتنظيمها تنظيمًا قبليًا خالصًا، أي أنه اعتمد في إقرار الأمن وجباية الضرائب على قبائل صنهاجية، وأرسل لها القضاة واجتهد للقضاء على أي محاولة للزناتيين لاستعادة السلطة، وحرص يوسف إلى جانب كل هذا ترسيخ الإسلام السني الصحيح عن طريق الفقهاء والشيوخ، الذين أرسلهم إلى منازل القبائل وبناء المساجد.[٢٢] وبذلك بلغت الدولة المرابطية في عهده أقصى حدودها من الأندلس شمالاً إلى أقصى الصحراء جنوبًا ومن المحيط غربًا إلى مدينة الجزائر شرقًا.[٢٣] فما الذي منعه من توحيد المغرب الأوسط؟

إن تمركز وتواجد بني حماد الصنهاجيين بالمغرب الأوسط، حال دون إقبال يوسف بن تاشفين على الإغارة على بني عمومته الصنهاجيين،[٢٤] لكن ما الذي يمنع من توحيد هذه القبائل تحت قيادة المرابطين، وضم أراضيها بالمغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى؟

وفي تقديري، فإن المسألة لا ترتبط بأواصر القرابة القبلية فقط، بل هناك سبب أكثر جدية وواقعية دفع يوسف بن تاشفين إلى التوقف شرقا عند بجاية، ويعزى الأمر إلى الحالة السياسية المزرية والأوضاع المتردية، التي آلت إليها الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية بالمشرق، وصراع ملوك الطوائف على السلطة بالأندلس، بالإضافة إلى حروب الاسترداد المسيحية ضد المسلمين، وهو ما جعل يوسف بن تشفين بعد توحيده للمغرب الأقصى، يوجه أنظاره إلى جزيرة الأندلس مستغلاً استنجاد ملوكها لاسيما المعتمد بن عباد لمساعدته على رد العدوان المسيحي.[٢٥]

وبذلك ظفر المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين بانتصار عظيم على قائد المسيحين الفونس في معركة الزلاقة يومه الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩هـ/ ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦م[٢٦]. وغير خاف أن هذا الانتصار الذي منح المغرب هيبة داخليًا وخارجيًا أيام يوسف بن تاشفين، سرعان ما تبدلت أحواله وتراجعت شعبية المرابطين، وضعف ملكهم بعد وفاة يوسف وانتقال العرش لابنه علي. فأين يكمن الخلل؟ هل في شخصية الأمير علي بن يوسف؟ أم في الظروف السياسية التي تولى فيها عرش المغرب؟

ثانيًا: ضعف الدولة المرابطية وقيام دولة الموحدين

تناسلت وتفاعلت مجموعة من العوامل الداخلية والخارجية لتعصف بالدولة المرابطية وبأمجادها وهي في عز عنفوانها، ومن جملتها ما ارتبط بضعف سياسة الولاة، الذين تولوا الخلافة بعد يوسف بن تشفين، ووضع ثقتهم العمياء في جهاز الفقهاء، فضلاً عن ثورة العلماء الناقمين على الوضع القائم بدولة الملثمين، كأبي حامد الغزالي، ومحمد بن تومرت

المصمودي، إلى جانب نكسة المرابطين بالأندلس، وتراجع دور المسلمين في التصدي للمسيحيين المعتدين من القشتاليين والأراكونيين.

٢/١-علاقة المجال الجغرافي السهل والجبل بالصراع المصمودي الصنهاجي

لعب المجال الجغرافي بمعطياته الطبيعية دورًا فعالاً في الصراعات القبلية بالمغرب الأقصى لما لهذا المجال من أهمية في الاستقرار أو الترحال، بحسب الموارد الطبيعية المتوفرة، ويعتبر المجال الأطلسي بسهوله وجباله خير مثال عن هذه الثنائية، التي برزت بشكل كبير أثناء الصراع المرابطي الموحدي، ولعبت دورًا هامًا في حسم الصراع والانتصار للسكان الأصليين من مصامدة الجبل والسهل إبان فترات فتور الدولة المرابطية، فما هي خصوصيات هذا المجال؟

كانت أغمات ونواحيها من سهول الحوز وجبال الأطلس الكبير مجالاً للمصامدة،[٢٧] قبل أن تزحف عليه القوات المرابطية وتحتله، وتضع بذلك حدًا لعيش سكان جبال درن، الذين كانوا يعيشون على ما تدره الأراضي السهلية من منتوجات فلاحية وما توفره المجالات الجبلية من مراعي خصبة للماشية،[٢٨] هذه المجالات كانت تشهد أسواق أسبوعية تركزت في الغالب عند مفترق الوديان، يتناقل فيها القوم أخبار القبائل المجاورة، وكانت هذه الأسواق تحقق الاكتفاء الذاتي لمصامدة الجبل، من خلال تبادل السلع المحلية عن طريق المقايضة، واشتغال النساء في توفير حاجيات أسرهن بالعمل في الحقول.[٢٩]

ومما زاد من أهمية المجالات المصمودية، تواجدها على ممر الطرق التجارية الرئيسة الرابطة بين أغمات وسجلماسة. ولحيوية هذه الطريق تحدث عنها ابن خلدون وعن بلاد مصمودة حين أشار إلى الرواج الملحوظ، الذي جعله قبلة للتجار "فرحل إليهم التجار من الآفاق واختلفت إليهم أهل النواحي والأمصار عمروا الجبال واتخذوا منها أوطانا عدة".[٣٠] بيد أن هذا الرواج التجاري عرف كسادًا وتراجعًا، بتراجع وساطة التجار المصامدة بفعل منافسة الصنهاجيين، وسيطرتهم على التجارة مع السودان خاصة بعد تحويل مسار هذا النشاط، من أغمات أيلان إلى عاصمة المرابطين وحاضرتهم مراكش.[٣١] وإذا كان المجال الجبلي قد تميز بمثل هذه المعطيات، فما الذي يمكن قوله عن نظيره السهلي؟

اتسمت المناطق السهلية بانبساطها وغنى مجالاتها الزراعية، وأهمية أسواقها التجارية وتمركزها على طرق التجارة الكبرى، كلها عوامل ساعدت على ازدهار النشاط التجاري بها،[٣٢] ومنها سوق أغمات الذي ينعقد كل أحد وكان مستودعًا للبضائع والأموال المتجهة للسودان أو الآتية منه.[٣٣] وهكذا ظلت العلاقات الاقتصادية والروابط القبلية بين مصامدة الجبل وصنهاجة السهل تعرف عمليات المد والجزر، إلى أن دخل المرابطون للمجال السهلي، مما نجم عنه تنامي الوعي السياسي للمصامدة بضرورة التوحد والتماسك لمواجهة المرابطين الغرباء، الذين توغلوا شمالاً إلى أن بلغوا مجال المصامدة، فاحتلوا سهل أغمات الذي يصفه الجغرافي الإدريسي بقوله: "تقع أغمات أوريكة في فحص طيب التراب كثير النبات والأعشاب، والمياه لا تنقطع عنه وحوله جنات وبساتين ومكانه أحسن مكان في الأرض".[٣٤]

مثّل المرابطون عناصر طارئة وغريبة على تلك المنطقة، إذ جاؤوا إليها على شكل فاتحين يحملون دعوة دينية، ويحاربون كل من لم يوافقهم في أفكارهم، إلا أنهم استقروا بمنطقة كانت منتجعا لطائفة من المغاربة، يرجع وجودها إلى ما قبل التاريخ وهي قبيلة مصمودة.[٣٥] ومع مطلع عام (٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م)، اختص أبو بكر مقرًا لقيادته العسكرية بأغمات وأعطى الانطلاق لتشييد عاصمة المرابطين، فشارك شيوخ القبائل وأعانوه على البناء بالمال والرجال.[٣٦] هذه المدينة التي استرسل عبد الواحد المراكشي في وصف مؤهلاتها الطبيعية بقوله:" [...] وهذه القلعة التي انتهينا إلى قرارها واستولينا على أرحب المدن أحد العيون وأخصبها بلدا في السنين لا يريمها الخصب ولا يتعاطاها ولا يرومها الجذب ولا يتعاطاها تباهي بأزهارها نجوم السماء".[٣٧]

وتفيدنا هذه الرواية في تأكيد أهمية الموقع الجغرافي، الذي استقر به المرابطون سواء من حيث المؤهلات الطبيعية أو من الناحية الفلاحية، علما أن ذات المجال كان في حوزة قبائل مصمودة وبه تم تأسيس عاصمة المرابطين مراكش، التي منها سيستكمل المرابطون حملاتهم العسكرية نحو الشمال لإخضاع السهول المجاورة (سهل تادلة – سايس)، لسهولة الاختراق ولكثرة الجيش المرابطي الجرار، الذي ألف المعارك السهلية وإحراز الانتصارات الواسعة. في المقابل، لم تكن الجبال سهلة الاختراق، لتحصينها الجيد ولاحتوائها على المكامن الخطيرة وفرق العصابات التي يمكن أن تقود الهجومات المباغتة.[٣٨]

هكذا نجد يوسف بن تاشفين بعد إخضاعه للمناطق السهلية، مارس سياسة مخالفة مع المناطق الجبلية إذ سعى إلى مهادنتها وكسب ولائها، ومنح زعماء هذه القبائل (=

الأمغار) نفوذًا كبيرًا وسلطة عظيمة، فهم مسؤولون عن أقوامهم أمام أمير المرابطين،[٣٩] بل جندوا عددًا هائلاً من هذه القبائل في الجيش المرابطي، إلا أن السؤال المطروح لماذا بنى المرابطون عاصمتهم مراكش بسهل الحوز؟

تذهب بعض الدراسات العربية الحديثة إلى تفسير هذا الاختيار بعوامل جغرافية، وهي أن المنطقة التي تم بها بناء مراكش منطقة شبه صحراوية تماثل إلى حد كبير فضاء الصحراء الصنهاجية بالجنوب؛[٤٠] غير أن البعض الآخر من الباحثين، ومنهم عبد الهادي شعيرة رأى أن الهدف من بناء المرابطين لمدينة مراكش بسهل الحوز، إنما استهدف مراقبة مصامدة الجبل، خوفًا من نزوعهم إلى الشر،[٤١] وهو نفس ما ذهب إليه الدكتور عز الدين عمر موسى، حيث أشار إلى أن المصامدة لم يكونوا على وئام مع المرابطين، الذين بنوا عاصمتهم بالقرب منهم ليذللوا من صعابهم.[٤٢]

وباعتبار المناطق الجبلية المصمودية مصدرًا للقلاقل والثورات بالنسبة للمرابطين، استدعى الأمر اتخاذ سياسة حازمة في التعامل مع ساكنتها والحد من خطورتها، ويتجلى ذلك جليًا في وصية يوسف بن تاشفين لولي عهده علي بن يوسف بشأن أهل الأطلس، حيث أوصاه بأن: "لا يهيج أهل جبل درن ومن وراءه من المصامدة وأهل القبلة" (=القبلة = الجنوب)، وكأن يوسف بن تاشفين كان يحس أنه سيخرج من جبال الأطلس جنوب مراكش فاتحون جدد يقضون على الدولة المرابطية.[٤٣]

إذا كان المرابطون قد كسبوا ولاء وانضمام القبائل المصمودية السهلية، وتجنيدها في الجيش كقبيلتي هيلانة وأوريكة، فإنهم بالمقابل وجدوا معارضة من لدن القبائل الجبلية، التي ظلت على انكماشها وتقوقعها تتربص من حين لآخر الفرصة للانقضاض على المرابطين بالسهول إلى أن ظهر على الساحة الدينية والسياسية الزعيم والفقيه ابن تومرت، الذي حقق آمالها في استرجاع مجالها، وفي الثورة على المرابطين الغرباء. فما هي طبيعة العلاقة التي ربطت ابن تومرت بقبيلة مصمودة؟ وكيف استطاع هذا الأخير كسب ولاء ومساندة القبائل المصمودية لدعوته الإصلاحية؟ وكيف تعاطفت مع مشاريعه السياسية الرامية إلى الإطاحة بدولة الملثمين؟

٢/٢-ظهور الدعوة التومرتية والانحلال الأخلاقي والسياسي المرابطي

كان للنجاح الذي حققه المرابطون في بناء دولة قوية، وضع أسسها ومعالمها الفقيه الجزولي عبد الله بن ياسين، دورًا هامًا وعاملاً محفزًا في تطلع المصامدة إلى الحكم، والسعي نحو توحيد العصبية المصمودية الكثيرة، فهم أعز نفرا وأغنى بلادًا، مستفيدين من الضعف الذي دب في الدولة المرابطية أيام علي بن يوسف، فحفزهم ذلك على الالتفاف حول دعوة ابن تومرت ومساندته على الجهاد. فما العوامل التي أدت إلى ضعف الدولة المرابطية؟

قبل الإجابة عن أسباب ضعف الدولة المرابطية، لابد في البداية من إعطاء نبذة يسيرة عن سيرة ابن تومرت، فقد أفاض أبو العباس بن إبراهيم في مؤلفه الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام[٤٤] في الترجمة والتعريف بشخصية محمد ابن تومرت، نسبة لوالده عبد الله بن عبد الرحمان بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب. لقب في صغره بأسفوا ينحدر من أسرة مصمودية على قدر من العلم، وهو المشار إليه في كلام ابن خلدون "وكان أهل بيته أهل نسك ورباط".[٤٥] واختلف المؤرخون في سنة ولادته بين من أرجعها إلى ٤٨٥هـ وهو ابن خلكان، وبين من أرجعها إلى ٤٩١هـ مثل الزركشي. وابن الخطيب، وأورد ابن قنفد أنه ولد بهرغة عام ٤٧١هـ، وهو نفس التاريخ الذي يقدمه للغرناطي.[٤٦]

تعلم القرآن الكريم في صغره وحفظه ثم توجه للمشرق للتبحر في العلم، حتى تضلع في علوم الشريعة والحديث النبوي الشريف وأصول الفقه والدين. ورغم تضارب الروايات التاريخية حول هذه الرحلة، وما قيل بشأن لقائه مع الغزالي، فإن الدكتور حسين مؤنس ينفي ذلك ويرى أن رحلته لم تتجاوز الإسكندرية شرقًا.[٤٧] ولما قفل هذا العالم راجعًا في اتجاه المغرب مرّ بالعديد من المراكز، مظهرًا لدينه مدافعًا عن عقيدته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ودخل بجاية وأظهر بها الوعظ والإرشاد، ومالت القلوب على محبته واتباع هديه، ولما رأى أمير بجاية حسن صنيعه وخوفًا عليه أمره بالخروج منها.[٤٨]

ويقول ابن خلدون عن شهرته العلمية: "وانطلق هذا الإمام [ابن تومرت] راجعًا إلى المغرب بحرًا متفجرًا من العلم وشهابًا واريًا من الدين"،[٤٩] ليقصد بعد ذلك ملالة ويلتقي بها بعبد المومن بن علي الكومي، الذي كانت وجهته نحو المشرق لطلب العلم، فلما سمع ببجاية بأخبار الفقيه السوسي أجَّلَ رحلته حتى يكتشف أمره وعلمه. وتصف العديد من المصادر هذا اللقاء بالأسطورة، وتقول بأن ابن تومرت تنبأ لعبد المومن بالخلافة وقيادة المسلمين قائلاً: "إنما تطهيرك من ذنوبك صلاح الدنيا على يديك والعلم الذي تريد اقتباسه من المشرق قد وجدته بالمغرب".[٥٠]

ومع مطلع القرن (السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، كان المغرب يعاني من أزمة ثقافية في أوساط الطلبة والعلماء، نتيجة استفحال نفوذ الفقهاء بعد تولي علي بن يوسف الحكم،[٥١] حيث تنبه ابن تومرت لهذه النقطة من الضعف في النظام المرابطي، وبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعرف على الأصحاب وتكوين الأتباع، في الوقت الذي كان فيه الحكم المرابطي غارقًا في المتناقضات، وبدأت بوادر الضعف تتسرب إليه في شتى المجالات. ولعل من بين هذه الاختلالات الفساد السياسي والأخلاقي، الذي عمَّ مختلف الجهات ممثلاً في طغيان الترف بالحواضر المغربية وعلى رأسها مدينة مراكش، مما أدى إلى ضعف الدولة واستبداد الولاة بدواليب السلطة. ونجد عند عبد الواحد المراكشي، رواية صريحة وواضحة عن هذه المستجدات، حيث يقول: "واختلت حال أمير المسلمين رحمه الله بعد الخمسمائة اختلالاً شديدًا فظهرت في بلاده مناكر كثيرة، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد وانتهوا في ذلك إلى التصريح فصار كل واحد منهم يصرح بأنه خير من علي أمير المؤمنين وأحق بالأمر منه".[٥٢]

وفي ذات السياق، أشار المؤلف نفسه إلى تدخل النساء السافر في الحكم وفي صنع القرارات السياسية، بقوله: "[...] استولى النساء على كل الأحوال وأسندت إليهن الأمور وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور"،[٥٣] والطامة الكبرى هي ازدياد نفوذ الفقهاء في عهد علي بن يوسف وتدخلهم في الحياة السياسية مشكلين بطانة العرش "فكان علي بن يوسف لا يقطع أمرا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء".[٥٤] ومما يعاب عليهم كونهم أفتوا في تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له، فقد أحرق علي بن يوسف كتاب إحياء علوم الدين للغزالي بإيعاز من الفقهاء وتوعد بالعقاب لمن وجده عنده.[٥٥]

إذا كانت كل هذه العوامل والأسباب ساهمت بشكل أو بآخر في إضعاف المرابطين، واستغلالها من طرف الموحدين للطعن في سلطانهم، فكيف تعامل الخليفة علي بن يوسف مع هذه الاختلالات؟

اتسم علي بن يوسف بقلة التجربة وعدم القدرة على تحمل المسؤولية، فهو لم يكن بدويًا قحا كأبيه يوسف بن تاشفين، ولم يولد بالصحراء ليتميز بالقساوة والغلظة والحزم في التحكم في زمام الأمور، فقد ازداد في سبتة من أم مسيحية من السبايا وتلقى نشأة وتربية أندلسية،[٥٦] وعاش حياة الترف والحضارة بالقصر، فغلب الطابع الديني على شخصيته وهذا ما يفسر موالاته للفقهاء، كما عرف عهده بالحرية، ولهذا أمن الناس في أيامه واطمأنوا ورخيت الأحوال في كل بلاده.[٥٧]

على أنه إذا كان علي بن يوسف على المستوى السياسي قليل التجربة، فضلاً عن اعتماده في كل أمر على الفقهاء، فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ورعه وإيمانه القوي واستحضار منطق الشورى، فهل يمكن والحال هذه أن نصدق كل ما قيل عن تمسكه بحياة الترف وحبه للدنيا؟ وأن تقاعسه عن الجهاد مرده تنشئته الحضرية؟ إن مثل هذا الكلام لا يستقيم والمجهودات التي بذلها هذا الخليفة من أجل إعلاء راية الإسلام والمسلمين، والحفاظ على أمجاد المرابطين بالمغرب والأندلس، بيد أن الرجل اصطدم حلمه بعدة عراقيل، منها اعتماده على فئة من فقهاء الدنيا الذين طعن فيهم ابن تومرت، وبين هشاشة علمهم القائم على الفروع وبعدهم عن نصح الحاكمين والمحكومين،[٥٨] ليجد هذا الخليفة نفسه بين المطرقة والسندان: الحملات المسيحية بالأندلس وما تتطلبه من تكثيف الجهود وتعبئة الطاقات لحماية دار الإسلام من جهة، ودعوة ابن تومرت وما خلفته من فوضى وبلبلة وسط الرعية من جهة ثانية.

لكل ذلك، خرج ابن تومرت من قرية ملالة في اتجاه مسقط رأسه بالمغرب الأقصى، مرورًا بكل من متيجة، وتلمسان ووجدة، وكرسيف، وفاس ومكناس، مركزا في الطريق في تطهيره للمناكر على عيبين هما: الخمر والتفسخ الأخلاقي، ممثلاً أساسًا في اختلاط النساء بالرجال،[٥٩] وبفاس ذاع صيته واشتهر عند الناس بالفقيه السوسي، الذي ألقى دروسًا في العقيدة الأشعرية وانتصر في مناظرته على فقهاء فاس؛[٦٠] ونفس الشيء حصل له بمراكش بعدما تجرأ على ضرب أخت الخليفة، حيث أمرها هي ورفيقاتها بستر وجوههن، فرفضت واشتكت أمرها للخليفة علي بن يوسف،[٦١] الذي لم يجد بدًا في معرفة ابن تومرت وجمع الفقهاء والعلماء لمناظرته، فتمكن ابن تومرت من إفحام منافسيه وعدَّد عيوب السلطان، وكثرة المناكر والبدع في دولته حتى ذرفت عيناه حياءً وخجلاً لشدة كلام ابن تومرت.[٦٢]

ولما أحس مالك بن وهيب خطورة بقاء ابن تومرت بالقصر، وإمكانية استمالته من طرف علي بن يوسف وإثارته عليهم، أشار على الخليفة بقتله قائلا له: "هذا رجل مفسد لا تؤمن غائلته ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه فإن وقع في بلاد المصامدة ثار علينا منه شر كثير".[٦٣] هكذا أدرك ابن تومرت أن بقاءه بمراكش محفوف بالمخاطر مع وجود مالك بن وهيب،

فنادى أتباعه قائلاً: "وأن لنا بأغمات أخا في الله نقصده فلن نعدم منه رأيا ودُعاءً وهو الفقيه عبد الحق بن ابراهيم المصمودي".[٦٤] ومن أغمات انتقل عبد الله بن تومرت بمعية أتباعه إلى مكان أكثر أمنا وتحصينا من عيون المرابطين، في قلب جبال الأطلس الكبير قريبا من وادي نفيس ويسمى الموضع بتينمل.[٦٥] فتبعته كتائب الجيش المرابطي وحال بينها وبينه تصدي القبائل المصمودية بهذه الجبال، ويفهم من ذلك مدى التجاوب بين طموحات المصامدة في التحرر وأفكار ابن تومرت في الثورة.[٦٦] فقد استفاد ابن تومرت من رحلته للمشرق من تكوين شخصيته، والتمتع بملكة النقد والثورة على مظاهر الجمود والتقليد والطعن في البدع والحوادث، مستثمرًا التيار الصوفي الذي استقطب العامة، وربط حركته بالإمام الغزالي ومزج بين الفكر الصوفي والمهدوية.[٦٧]

هكذا بدأ ابن تومرت كمصلح ديني يريد تقويم اعوجاج المجتمع والعودة به إلى التعاليم الإسلامية الصحيحة، إلى منظر بعد ذلك للثورة على المرابطين وزعيمًا سياسيًا محنكًا للمصامدة الموحدين، فما هي أهم التحولات التي ساهمت في بلورة آراء ابن تومرت ومواقفه الدينية إلى آراء وطموحات سياسية؟

لا شك أن ما تعرض له ابن تومرت في مراكش من مضايقات، وتعسف السلطة الحاكمة ورغبتها في القضاء عليه، قد عمق في نفسه فكر الثورة والتغيير الشامل، أمام مظاهر الانحراف والضعف السياسي، مما جعله يخلع بيعة السلطان المرابطي علي بن يوسف عن أتباعه،[٦٨] ولتحقيق هذه الثورة وتغيير الواقع عمد ابن تومرت منذ استقراره بتنمل على تنظيم أتباعه وتأطيرهم تأطيرًا محكمًا متبعًا الخطوات التالية:

- تأسيس رابطة للعبادة وتدريس العلم، ثم تأليف عقيدة التوحيد باللسان البربري والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- اختيار طائفة من أتباعه كرسل للقبائل الأخرى للتبشير بالدعوة الموحدية.
- إعلان فكرة المهدوية، بعدما استغل جل الأحاديث التي نسبها أصحاب المهدي المنتظر للنبي صلى الله عليه وسلم، وبعدما كثرت القبائل التي قبلت دعوة ابن تومرت، كون طبقات الموحدين وحملهم على طاعته طاعة عمياء،[٦٩] إذ لم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر، وفتنتهم به تشتد وتعظيمهم له يتأكد، إلى أن بلغوا في ذلك إلى حد أنه لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه لفعل.[٧٠]

٣/٢-المواجهات العسكرية التومرتية وبناء دولة الموحدين

اعتز ابن تومرت كثيرا بنسبه المصمودي، فحاول على غرار عبد الله ابن ياسين الذي جمع شتات القبائل الصنهاجية، أن يكون له هو الآخر الفضل في جمع شتات المصامدة وتوحيدهم منذ استقراره بجبل تنمل، حيث زرع في أتباعه بذور الثقة والحماس والدفاع عن تعاليم الدين الإسلامي، ورفض وجود المرابطين ووصفهم بالمارقين المجسمين الخارجين عن الدين والبعيدين عن التوحيد، حيث جاء في كتابه أعز ما يطلب ما نصه: "... والسادسة أنهم بكم يعني صم عن الحق لا يسمعون إليه، بكم عن الحق لا يقولون ولا يأمرون به".[٧١]

وأمام استفحال دعوة ابن تومرت وتماديه في انتقاص واحتقار المرابطين وذكر عيوبهم لإخراج الناس عن طاعتهم، جهز الخليفة المرابطي جيشا لمحاربته، فكان أن ضرب حصارا عسكريا واقتصاديا على الموحدين دام ثلاث سنوات من ٥١٥هـ إلى ٥١٧هـ، فجاء الرد بعد ذلك من ابن تومرت لما عاين حماس أتباعه للجهاد، حيث جهز جيشًا قويًا من أتباعه مع ما انضاف إليهم من أهل السوس وقال لهم: "اقصدوا هؤلاء المارقين وادعوهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن أجابوكم فإخوانكم في الدين وإن لم يفعلوا فقاتلوهم".[٧٢] وجعل على رأس الجيش عبد المومن بن علي الكومي قائلاً: "أنتم الموحدون وهذا أميركم".[٧٣]

ولما تراءى الجمعان في موقعة البحيرة انهزم الموحدون وقتل عبد الله الونشريسي، فلما علم ابن تومرت بخيبة أتباعه سألهم عن مصير القائد عبد المومن بن علي الكومي، فأجابوه بأنه حي فهوَّن عليهم أمرهم وخفف من هزيمتهم معتبرا قتلاهم شهداء، مما زاد من تماسكهم وحرصهم على قتال المرابطين، وشن عليهم الإغارات وقطع عنهم مواد التموين.[٧٤]

وعلى إثر ذلك، بدأ الموحدون يبسطون سيطرتهم على منطقة سوس ونواحيها ويلحقون هزائم عدة بالمرابطين، ولم يزل أمير المؤمنين علي بن يوسف يواجه أتباع المهدي بن تومرت في كل مكان، ويبعث لمحاربتهم الجيوش والكتائب مدة طويلة مما كلف خزينة بيت المال موارد مالية أنفقت على هذه المعارك.[٧٥] غير أنه وابتداء من سنة ٥٣٧هـ وبعد وفاة علي بن يوسف وانتقال العرش لابنه تاشفين، بدأت الدولة المرابطية في الضعف والتراجع أمام هجمات الموحدين بقيادة عبد المومن بن علي الكومي، الذي ركز في حربه على الجبال متحاشيًا النزال مع المرابطين في سهل مراكش، فأخضع المناطق الجبلية

وصعد شمالا نحو تلمسان ونواحيها لملاحقة الجيوش المرابطية بقيادة تاشفين الذي لقي مصرعه بعد عامين من حكمه عام ٥٣٩هـ. وأمام هذا المد الموحدي، تمت محاصرة فاس تسعة أشهر فسقطت في أيديهم عام ٥٤٠هـ، وفي السنة الموالية سقطت العاصمة المرابطية مراكش في يد الموحدين بعد مقتل آخر أمير مرابطي إسحاق بن علي بن تاشفين. وبذلك، دخلت البلاد تحت حكم الموحدين وأسدل الستار عن مجريات الصراع المرابطي الموحدي، حيث ازدهرت الدولة المغربية في عهد يوسف ويعقوب المنصور الموحدي، وزاد توهجها أثناء خلافة الناصر.(٧٦)

خَاتِمَةٌ

لعبت الثنائية الجغرافية (السهل /الجبل)، والثنائية الجغرافية (قبيلة صنهاجة/ قبيلة مصمودة)، دورًا هامًا في تأجيج الصراع السياسي المرابطي الموحدي، إلا أن أغلب الكتابات التاريخية حول هذا الموضوع ركزت على الأحداث السياسية المباشرة، دون أن تولي أهمية للمعطى الجغرافي في فهم حيثيات هذا الصراع وتداعياته، فأمام شح المصادر والمراجع التي تناولت طبيعة العلاقة المحكومة بين السهل والجبل، كمعطيين جغرافيين امتد تأثيرهما في الزمان والمكان، أعتقد أن الصراع المرابطي – الموحدي كان فيه للعامل الجغرافي وزنه وأهميته في تأجيج هذا الصراع، فأن يستولي المرابطون الغرباء القادمون من أقاصي جنوب المغرب على مجال جغرافي هام وحيوي، كان في السابق مرتع خصب ومصدر رزق للمصامدة، سيؤدي حتما إلى اصطدام القبائل المستقرة بالقبائل الوافدة.

فاستيلاء المرابطين الوافدين من بدو الصحراء على سهل أغمات المجاور لجبل تنمل مكان ومعقل المصامدة، يعني قتل القوة الاقتصادية المصمودية التي راهنت على السهول، واعتبرتها مجالا جغرافيا لا يمكن التنازل عنه بأي حال من الأحوال، فهو مكان خصص لأنشطة فلاحية وزراعية في الوقت الذي كان فيه الجبل مرتعا للأنعام ومأوى للسكان، فدخول المرابطين لهذا المجال أحدث أضرارًا اقتصادية للمصامدة، الذين لم يكونوا مؤهلين في البداية للدفاع عن مجالهم لقوة المرابطين العسكرية، لكن الأمر لم يدم طويلاً، فلطالما تربص المصامدة بالمرابطين النازحين وبحثوا عن الفرص والأسباب للإطاحة بسلطانهم، وكان ظهور الداعية محمد بن تومرت المصمودي، بمثابة المنقذ والمصلح الديني الذي كشف عيوب المرابطين وفقهائهم، وحرض المصامدة على معاداتهم فسمى أتباعه بالموحدين، مستغلا الضعف السياسي والعسكري للمرابطين في عهد علي بن يوسف.

فكان من الطبيعي أن يستغل الصامدة الموحدون المستقرون بالجبال (جبل تنمل) الفرصة للانقضاض على صنهاجة المرابطون بالسهول (سهل مراكش وأغمات)، حيث وجهوا لهم ضربات موجعة مستغلين تشتت الجهود المرابطية بين الحفاظ على الأندلس ومواجهة الاضطرابات الداخلية من جهة، وضعف السلاطين الذين خلفوا يوسف بن تاشفين ونجله علي من جهة ثانية، فتمكنوا من تحقيق عدة انتصارات توجت بالدخول لمراكش عاصمة المرابطين عام ٥٤١هـ، وإنهاء حكمهم وإعلان الدولة الموحدية بالمغرب الأقصى بقيادة عبد المومن بن علي الكومي.

الاحالات المرجعية:

(١) ماجدة كريمي، **تجارة القوافل: آثار وبصمات على تاريخ دول المغرب الوسيط**، دار نشر الجسور، وجدة، ط ١، ١٩٦٦، ص ٣٤.
(٢) أحمد بن محمد المراكشي ابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، دار الثقافة بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م، ج ٤، ص ٢٥.
(٣) عبد المجيد النجار، **المهدي بن تومرت المتوفي عام ٥٢٤هـ/١١٢٩م، حيلته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب**، دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٤٠.
(٤) عبد الله العروي، **"وحدة شمال إفريقيا أمام الخطر المسيحي في عهد المرابطين"**، مجلة الجامعة الشتوية، مجهودات وإسهامات الأجيال السابقة عبر التاريخ في بناء المغرب العربي، دار الطباعة، مكناس، ١٩٨٨م، الجزء الأول، ص ١٥٦.
(٥) أبو عبيد الله البكري، **المسالك والممالك**، حققه ووضع فهارسه الدكتور جمال الطلبة في مجلة منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، الجزء الثاني، ص ٣٥٣.
(٦) عبد الهادي شعيرة، **المرابطون وتاريخهم السياسي ٤٣٠-٥٣٩هـ**، دار الاتحاد العربي للطباعة، المكتبة القاهرة الحديثة، الطبعة الأولى، ١٩٦٩م، ص ١٢.
(٧) سعدون عباس نصر الله، **دولة المرابطين في المغرب والأندلس عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٨٥هـ/١٩٨٥م، ص ٣١.
(٨) حسين مؤنس، **معالم تاريخ المغرب والأندلس**، دار الرشاد، الطبعة ٧، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، ص٨٥.
(٩) عصمت عبد اللطيف دندش، **دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا ٤٣٠هـ_٥١٥هـ/ ١٠٣٨_١١٢١م**، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٨٧.

(١٠) علي بن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب لروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، راجعه عبد الوهاب بن منصور، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص ١٦٧.
(١١) عبد المجيد النجار، م.س، ص ٤١.
(١٢) علي بن أبي زرع الفاسي، م.س، ص ١٦٧.
(١٣) نفسه، ص ١٦٩.
(١٤) نفسه، ١٧٠.
(١٥) أحمد الشكري، **الإسلام والمجتمع السوداني مملكة مالي ١٢٣٠-١٤٣٠م**، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ١٩٩٩م، ص ١٣٧.
(١٦) حسين مؤنس، م.س، ص ١٨٩.
(١٧) أحمد الشكري، م.س، ص ١٣٧.
(١٨) عصمت عبد اللطيف دندش، م.س، ص ١٠٤.
(١٩) نفسه، ص ١٠٤.
(٢٠) علي بن أبي زرع الفاسي، م.س، ص ١٧١.
(٢١) عصمت عبد اللطيف دندش، م.س، ص ١٠٧.
(٢٢) سعدون عباس نصر الله، م.س، ص ٥٧.
(٢٣) نفسه، ص ٥٨.
(٢٤) نفسه، ص ٥٩.
(٢٥) نفسه، ص ٦٨.
(٢٦) نفسه، ص ٩٤.
(٢٧) **المصامدة**: هم سكان المغرب الأصليون المنحدرون من القبائل التي سكنت في المغرب في التاريخ القديم، مشكلين اتحادية مكونة من خليط من القبائل والبطون انصهرت في مجتمع قبلي ساهم المجال المغربي المتنوع في ترابطه وتنافره أحياناً، انظر: هاشم العلوي قاسمي، **مجتمع المغرب الأقصى منتصف القرن ٤هـ/ منتصف القرن ١٠م**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص ٢٥٥.
(٢٨) محمد مزين وعبد الرحيم بن حادة، **الجبل في تاريخ المغرب**، إنجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس-فاس، سلسلة ندوات أيام ٢٠ - ٢٢ أكتوبر ١٩٩٤، ص ٤١.
(٢٩) لحسن بولقطيب، "**المصامدة والنشاط التجاري إلى حدود قيام الدولة الموحدية**"، أعمال ندوة التجارة وعلاقاتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، ص ٨٧.
(٣٠) عبد الرحمان بن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر**، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، الطبعة الأولى، عام ١٩٨١م، الجزء السادس، ص ٢٩٨.
(٣١) عبد الرحيم بن حادة ومحمد مزين، م.س، ص ٤١.
(٣٢) أبو عبد الله الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، تحقيق بريل ليدن، طبعة عالم الكتب، بيروت، الجزء الأول، ١٩٩٢م، ص ٤٢.
(٣٣) حسين مؤنس، م.س، ص ١٨٥.
(٣٤) عبد الهادي شعيرة، م.س، ص ٦٣.
(٣٥) محمد زنيبر، م.س، ص ١٣٦.
(٣٦) عصمت عبد اللطيف دندش، م.س، ص ٩٩.
(٣٧) عبد الواحد المراكشي، م.س، ص ٢٤٨.
(٣٨) محمد مزين وعبد الرحيم بنحادة، م.س، ص ٤٠.
(٣٩) محمد عبد الهادي شعيرة، م.س، ص ٦٧.
(٤٠) عصمت عبد اللطيف دندش، م.س، ص ٩٨.
(٤١) محمد عبد الهادي شعيرة، م.س، ص ٦٨.
(٤٢) عبد المجيد النجار، م.س، ص ٢٠٣.
(٤٣) عصمت عبد اللطيف دندش، م.س، ص ١٣١.
(٤٤) أبو العباس بن إبراهيم، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٧٥م، الجزء ٤، ص ٥٨.
(٤٥) عبد المجيد النجار، **المهدي بن تومرت المتوفي عام ٥٢٤هـ/١١٢٩م**، حيلته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وآثره بالمغرب، م.س، ص٣٧.
(٤٦) نفسه، ص ٣٢.
(٤٧) حسي مؤنس، م.س، ص ٢٠٤.
(٤٨) عبد الواحد المراكشي، م.س، ص ٢٦٦.
(٤٩) عبد الله علام، **الدعوة الموحدية**، دار المعرفة، الطبعة الأولى، مارس ١٩٦٤م، ص٩٦.
(٥٠) أبو بكر بن علي الصهاجي، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدي**، دار المصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧١م، ص ١٦.
(٥١) محمد زنيبر، "**الخلفية الاجتماعية والثقافية لحركة المهدي بن تومرت**"، مجلة الماهل، العدد ٢٤، ص ١٢١.
(٥٢) عبد الواحد المراكشي، م.س، ص ٢٦٠.
(٥٣) نفسه.
(٥٤) عصمت عبد اللطيف دندش، م.س، ص ١٣٢.
(٥٥) حسين مؤنس، م.س، ص ٢١٥.
(٥٦) عصمت دندش، م.س، ص ١٣١.
(٥٧) عبد المجيد النجار، م.س، ص ٩٥.
(٥٨) محمد زنيبر، م.س، ص ١٣٢.
(٥٩) عبد المجيد النجار، م.س، ص ٩٨.
(٦٠) نفسه، ص ٩٧.
(٦١) نفسه، ص ١٠٠.
(٦٢) نفسه، ص ٩٩.
(٦٣) عبد الواحد المراكشي، م.س، ص ٢٧٢.
(٦٤) عبد المجيد النجار، م.س، ص ١١٢.
(٦٥) حسين مؤنس، م.س، ص ٢٠٧.
(٦٦) محمد زنيبر، م.س، ص ١٣٩.
(٦٧) محمد الشريف، "**تيار التصوف في العصر الموحدي من خلال قطعة من كتاب المستفاد في مناقب العباد لأبي عبد الله محمد التميمي**"، مجلة ملتقى الدراسات المغربية والأندلسية، منشورات كلية الأداب والعلوم الإنسانية بجامعة عبد المالك السعدي بتطوان، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٣م، عدد ٥، ص ٤٣٧.
(٦٨) عبد المجيد النجار، م.س، ص ١١٢.
(٦٩) حسين مؤنس، م.س، ص ٢٠٨.
(٧٠) عبد الواحد المراكشي، م.س، ص ٢٨١.
(٧١) محمد بن تومرت، **أعز ما يطلب**، تحقيق وتقديم الدكتور عبد الغني أبو العزم، مؤسسة الغني للنشر، مطبعة وليلي، مراكش، ١٩٩٧م، ص ٣٨٥.
(٧٢) عبد الواحد المراكشي، م.س، ص ٢٨٢.
(٧٣) حسين مؤنس، **تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي**، دار الطباعة العصر الحديث، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، المجلد الثاني، ص ٢٠.
(٧٤) حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، م.س، ص ٢١٢.
(٧٥) نفسه، ص ٢١٤.
(٧٦) عز الدين عمر موسى، م.س، ص ٤٤.